مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(3): 369–388
DOI: 10.31456/beytulmakdis.809571

الاستيطان الصليبيّ لبيت المقدس و تهجير المقدسيين

مصطفى قداد*

ملخص: كانت مدينة بيت المقدس تنعم بالازدهار إلى أن وقعت تحت الاحتلال الصليبي، فتعمد الصليبيون إفراغ المدينة المقدسة ومحيطها من القرى والبلدات من أهلها وسكّانها الأصليين، وسلكوا في ذلك طرائق كثيرة أبرزها ما قاموا به من مجازر ومذابح في كل المدن والقرى التي احتلوها، فأفرغوها من أهلها بقتلهم وأفرغوا ما تلاها من بلاد بالتخويف من أن يصيبهم ما أصاب إخوانهم، لتأتي الخطوة التالية المتمثلة بإقامة المستوطنات الصليبية وإسكان المهاجرين الأوربيين الصليبين فيها. وقد عمل الصليبيون على جذب المستوطنين من أوروبا بحجج خادعة منها حماية مقدساتهم الدينية، ليُسكنوهم تلك المستوطنات التي جعلوا منها خطّاً دفاعياً أولّياً دون المدينة المقدسة، و لم يكتفوا بمن هاجر من أوروبا، لأن عددا كبيرا منهم آثر العودة، فاستعانوا بأبناء دينهم من السكان الأصليين ممن استمالوهم إلى جانبهم. وبالتزامن مع حركة الاستيطان الصليبي كان سكان الأرض المقدسة على موعد مع رحلة التهجير القسري التي أطلقها المحتل الصليبي، ليلجأ أهلها بانتماءاتهم المختلفة (مسلمون ونصارى ويهود) إلى البلدان المسلمة المجاورة ولينقلوا معهم علومهم وفنونهم وخبراتهم، ويجعلوا منها قيمة مضافة لإخوانهم الذين استقبلوهم بالود والترحاب. ومما يجدر بنا الإشارة إليه هو أن معظم النصارى من سكان بيت المقدس كانوا قد هاجروا فيمن هُجّر عن أرضه، ليكذّب فعلهم ادعاءات الصليبين بحماية أبناء دينهم والمقدسات الدينية التي دمّروا معظمها بحملاتهم الهمجية تلك. ثم ليتكلل نضال المسلمين الدؤوب بفتح مبين لبيت المقدس على يد صلاح الدّين الأيّوبي الذي عمل هو ومن بعده ممن حكم بيت المقدس على إعادة الأرض لأهلها. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي والوصفي التقابلي؛ للوقوف على أوجه التشابه والاختلاف بين الاستيطان الصليبي والاستيطان الصهيوني، وليخرج هذا البحث بجملة من النتائج المهمة: كضرورة الاستمرار في المقاومة بكل أشكالها مع يقيننا بحتمية زوال الكيان الصهيوني الغاصب كما زال قبله الكيان الصليبي فالتشابه بينهما كبير جداً وقد يصل إلى حد التطابق في بعض المجالات.

الكلمات المفتاحية: الاستيطان، بيت المقدس، التهجير، الحملات الصليبية، المستوطنات.

The Settlement of the Crusaders in Bayt Al-Maqdis and the Displacement of Jerusalemites

ABSTRACT: *The city of Bayt al-Maqdis enjoyed prosperity and its people enjoyed freedom for centuries until the arrival of the Crusades. As soon as the Fatimids seized the city from the Artuqids, change seemed inevitable as the region was soon lost to the first crusade. The Crusaders deliberately evacuated the Holy City and its environs, including its villages and towns through many means, perhaps the most prominent of which was the massacres they carried out in the cities and villages*

* قسم اللغة العربية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة ماردين أرتقلو، ماردين/ تركيا، mustafakadad@gmail.com

they occupied. They began by killing its people and emptied many of their lands by spreading fear that the inhabitants' fate would be similar to that of others in cities such as Jerusalem. This was the Crusaders' first step in their settlement policy, followed by the establishment of Crusader settlements to accommodate many of the crusading European immigrants. The Crusaders attempted to attract crusaders from Europe to settle in the Holy City with deceptive arguments, including through promises to protect their holy sites. These efforts were undertaken in order to populate those settlements, which were made a primary line of defence for the Holy City. As many decided to return to Europe, in order to continue with their settlement plans, they sought to resettle indigenous Christians whom they lured to their side. In conjunction with the Crusader settlement movement, much of the original inhabitants of the Holy Land were subject to forced displacement due to the Crusader occupation, thus the original inhabitants of different religions (Muslims, Christians and Jews) would take refuge in neighbouring Muslim countries regardless of the ruling authority in these lands and carried with them their knowledge, arts and sciences, to bring added value to the places they took refuge in, as a result of which they were embraced with affection and delight. It should be noted that many of the Christians of Bayt al-Maqdis, whom the crusades claimed to be coming to protect, had to undergo forced migration from their lands, which were taken over or destroyed by the crusading barbaric campaigns. The relentless struggle of the Muslims to retake these lands culminated with their liberation by Salah al-Din, who together with his successors worked to return the land to its original inhabitants, regardless of religion. This study relies on the inductive and contrastive descriptive approach to analyse the similarities and differences between the Crusader settlement and the Zionist settlement. The article arrives at a set of important outcomes, such as the necessity to continue the resistance in all its forms, with the certainty of the inevitable demise of the usurping Zionist entity, just as the Crusader entity had become extinct before. It becomes apparent that the similarities between both entities is very great and on several important issues, reaches a point of congruence.

KEYWORDS: *Jerusalem, Displacement, Crusades, Settlements.*

مقدّمة

لم تكن الحملات الصليبية على بيت المقدس وليدة الصدفة، وإنما أمر تم التخطيط والتحشيد له على مدى أعوام، بداية من مشروع البابا غريغوري السابع (Gregory VII)[1] عام 467هـ/1074م، ثم أُعيد طرح فكرة احتلال بيت المقدس عسكريا من قبل الأسقف بنتسو (Pentso)،[2] لينجح البابا أوربان الثاني (Urban II)[3] في تحقيق هذه الأفكار على أرض الواقع واحتلال بيت المقدس لاعتبارهم أن فلسطين هي ميراث مسيحي ويجب عليهم أن يستردوها بقوة السلاح، ويبدو جلياً أن هذه الحروب الصليبية بنيت على أساس ديني إضافة لما يرافقه من دوافع أخرى اجتماعية وسياسية واقتصادية، وقد كان خطاب كليرمونت للبابا أوربان عام 488هـ/1095م هي الصيغة النهائية والصريحة لفكرة الاستيطان الصليبي، قال:

لأن هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب وتحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكثيرة، وهي لا تفيض بالثروة الطائلة، وإن ما لا تكاد تحقق من الطعام ما يكفي زرعها فقط... انطلقوا على طريق الضريح المقدس أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم.[4]

المشكلة البحثية

من خلال مطالعتي لأحداث التاريخ إبان الغزو الصليبي والأبحاث التي تناولت هذه القضية، لم أقف على دراسة ربطت المستوطنات التي أقامها الصليبيون في بيت المقدس وظروفها التاريخية بإقامة الصهاينة اليوم لمستوطناتهم التي يظنون أنها ستوفر لهم ديمومة في بيت المقدس ولو نظرنا إلى مثيلاتها الصليبية في ذاك الوقت لرأينا أنهم كانوا يظنون أيضاً أنهم سيستولون على بيت المقدس إلى الأبد بما أقاموه من مستوطنات وقلاع، غير أن تضافر جهود المقاومة لم تسمح لهم بذلك وهذا ما أردت أن أظهره في هذا البحث.

لذا تتجلى أهمية هذا البحث بالاستفادة من دروس التاريخ في مقاومة المستوطن الغاصب، وبيان أهمية تنوع أشكال المقاومة والوقوف على نقاط القوة والضعف في الحركة الاستيطانية إبان الغزو الصليبي لبيت المقدس، لإجراء مقابلة بينها وبين الحركة الاستيطانية الحديثة من قبل الصهاينة.

أهداف البحث

إننا إذ نبحث في الموضوع فإننا نهدف من بحثنا أن نستنطق التاريخ في السياسة الاستيطانية للمحتل في كل زمان، وكذلك للوقوف على دوافع الهجرة ووجوهها وهدفها، علنا نوفق في فهم عقلية المحتلين المتشابهة في كل زمان ومكان، ونخلص من ذلك بفهم لسنن التاريخ وما ترسمه من ملامح الواقع، لنستخلص منها حلولاً ناجعة في دعم المقاومة بكل أنواعها سعياً لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الصهيوني الغاصب. أما خطة البحث فقد جعلتها على مقدمة و مبحثين وخاتمة، أتكلم في المبحث الأول منها عن قضية الاستيطان وحيثياتها وأهدافها، أما في المبحث الثاني أتناول مسألة تهجير أهالي بيت المقدس -المسلمين والنصارى واليهود- وأسبابها ونتائجها، لننتهي إلى إسقاطات من دروس التاريخ على واقع بيت المقدس اليوم ونصل بعدها إلى خاتمة نعرض فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: قضية الاستيطان وحيثياتها وأهدافها

أولاً: العناصر الأساسية للاستيطان الصليبي

تقوم العملية الاستيطانية على جملة من الأسس والعناصر الأساسية التي تمنحها أسباب الوجود والاستمرار، وهذه العناصر هي: القوة العسكرية الكافية للاحتلال والقدرة

الاقتصادية لتمويلها وقبلهما الأرض الصالحة للاستيطان والقوة البشرية بمعنى السّكان لأنهم العنصر الأهم في التكوين الاجتماعي للمستوطنة، وتتفاوت هذه العناصر في درجة أهميتها وارتباطها بديمومة الاستيطان واستمراريته، وسيتم ذكرها بشيء من التفصيل مع مراعاة أهميتها.

1- الأرض

تُعدُّ الأرض العنصر الأهم في إقامة أي تجمع بشري، فلا شك أنها نقطة البداية التي من أجلها تقام المخططات وتجهز العناصر الأخرى. وقد بدا ذلك جلياً في خطب القساوسة والرهبان والباباوات التي مهدت لاحتلال بيت المقدس، كما صرّح البابا أوربان الثاني بقوله:

> أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم لأن هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس "أعطاها الرب ملكًا لبني إسرائيل".[5]

ومن أجل هذه الأهمية كان لابد لهم من إضفاء قداسة عظيمة على هذه البقعة الجغرافية من الأرض لحشد الجماهير وتوجيه القوى الأخرى للتضحية في سبيلها. وهذا ما عملت عليه المرجعيات الدينية الصليبية تمهيداً لإقامة عناصر الاستيطان الأخرى، فاتخذت من النصوص التي وردت في الإنجيل عن هذه الأرض وقدسيتها على أنها ميراث السيد المسيح لهم لذا وجب عليهم أن يخلصوها من سيطرة المسلمين بالسلاح كما عبر عنه البابا أوربان الثاني بقوله: "يجب أن تدفعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً".[6]

ومما سبق أعلاه يظهر لنا جلياً أن الحروب الصليبية لم تكن دينية فحسب وإنما كانت حركة استعمارية استيطانية هدفها التوسع الجغرافي للغرب الصليبي والسيطرة على الأرض في الشرق، مع تسترها بغطاء ديني صليبي. وقد ذهب إلى تأييد هذا القول عدد من المؤرخين في الغرب،[7] منهم: برنارد لويس (Bernard Lewis) و جروسيه (Grousset) و تريفليان (Trevelyan) إضافة إلى هنري وليم كارلز ديفز الذي في كتابه (أوروبا في العصور الوسطى) إذ قال متحدثاً عن الحروب الصليبية تحت عنوان الاستعمار الأوربي:

> إن الشغل الشاغل للحكام اللاتين في الثمانين سنة التي أعقبت تأسيس المستعمرات الأوروبية في الأرض المقدسة هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس.[8]

يتضح مما سبق أن السيطرة على الأرض واحتلالها كان الهدف الأهم والعنصر الأبرز في الحركة الاستيطانية الصليبية لبيت المقدس، وأن إضفاء القداسة على هذه الأرض وإسقاط نصوص الإنجيل عليها كان تمهيداً للانتقال إلى العنصر الثاني.

2- القوة العسكرية

لا شك أن القوة العسكرية هي الركن الأساسي في الاستيطان الصليبي، فهي العامل الأساسي في السيطرة على الأرض وبسط النفوذ وطرد أهل تلك الأرض، تمهيداً لإقامة المستوطنات واستجلاب المستوطنين. وبدون هذه القوة العسكرية لا يمكن أنْ تتوافر عناصر الاستيطان الأخرى، حتى وإنْ توافرت بغير هذه القوة فستكون عرضة للزوال سريعاً. لم تكن تقتصر حركة الاستيطان الصليبي لبيت المقدس على قوة عسكرية لبلد أوربي واحد وإنما كانت شاملة الغرب الأوربي كاملاً فقد تحركت جيوش من كل أوروبا كفرنسا و ألمانيا وانكلترا والسويد والدنمارك والنرويج وغيرها، و لم تكن الحملة الصليبية سبع حملات فقط، وإنما كانت:

> مداداً لا ينقطع، وسيلاً من البشر يتحرك على السفن وفي البر؛ مدار السنوات المائتين التي امتدتها الحروب، فقد تكون الحملات بدورها أكثر من مائتين أو ثلاثمائة حملة صغيرة وكبيرة لبضعة ملايين بعضهم حجاج وبعضهم محاربون وكثير منهم تجار ومغامرون.[9]

لقد قامت مستوطنات الصليبيين على يد جيش صليبي وقوة عسكرية من كل أوروبا، عملت على إنشاء الحصون والقلاع وإمدادها بمستلزمات الحياة. و لم ينقطع الدعم الأوربي المادي والعسكري عن هذا الكيان طوال تلك المدة؛ لأن حياة هذا الكيان الغريب قائمة على هذا الدعم الذي يعدُّ "الرحم الذي منه ولد المشروع الفرنجي الصليبي".[10]

3- العنصر البشري "السكان"

فقدت فلسطين الكثير من أهلها نتيجة للمجازر التي ارتكبها الصليبيون إبان غزوهم لها، إضافة لعمليات التهجير وطرد السكان المحليين التي كانت مصاحبة للاستيلاء على المدن والقرى،[11] كما أن معظم الصليبيين عادوا إلى بلادهم بعد الحملة الصليبية الأولى و لم يبق منهم في فلسطين إلا القليل. ومن أجل تعويض هذا النقص في القوي البشرية اتبع الصليبيون سياسة تشجيع الهجرة الأوروبية إلى فلسطين، وإحلال هؤلاء المهاجرين محل السكان الأصليين وذلك من خلال إنشاء قرى زراعية؛ فقد كان بعض المتعهدين يفاوضون السادة الإقطاعيين من أجل إحضار مستوطنين جدد لتوطينهم في المستوطنات والقرى الصليبية.[12] وأصدروا العديد من المراسيم من أجل تشجيع وتسهيل هجرة المسيحيين الأوروبيين إلى فلسطين والاستيطان فيها، كالمرسوم الذي أصدره الملك بلدوين الأول الذي يهدد فيه كل سادة الأرض الغائبين بفقد ممتلكاتهم وعقاراتهم، وإذا لم يحضروا قبل نهاية العام سوف يفقدون كل أملاكهم الإقطاعية ومساكنهم.[13] وقد بدأ هذا القانون بعد أن غادر معظم الصليبيين مدينة بيت المقدس، فبعضهم غادرها إلى المدن الساحلية التجارية التي تم الاستيلاء عليها، بينما ذهب البعض الآخر إلى الأرياف مع أسيادهم

الإقطاعيين.[14] مما جعل الأمير جودفري يتنبه إلى حجم الخطورة الأمنية والاقتصادية التي قد تتعرض لها المدينة المقدسة، فمنح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية تقع في حدود مدينة بيت المقدس من أجل الحفاظ على الانتصارات التي حققوها، وللحد من تناقص أعداد المستوطنين، وتوطينهم في مناطق قريبة من القدس، ليكونوا مستعدين للدفاع عنها ضد أي هجوم إسلامي قد تتعرض له.[15]

وعندما سقطت الرها 539هـ/1144م، هاجر العديد من سكان إمارة الرها إلى مملكة بيت المقدس الصليبية. وقد تكلم ويليام الصوري عن هذه الهجرة الجماعية بقوله: "وذهب مع (بلدوين الثالث) جميع الناس الذين كانوا يرغبون بالرحيل....وهكذا أسرع الملك بالرحيل مع هذا الحشد الضخم من الناس غير المقاتلين".[16] ونرى مما سبق أن اهتمام الصليبيين بزيادة عدد السكان والمستوطنين كان ناتجاً عن شعورهم بأهمية العنصر البشري في إقامة مستوطناتهم وحمايتها، فالعنصر البشري هو المكون الأساسي للقوة العسكرية والقوة الاقتصادية والدعم المالي.

4- القوة الاقتصادية

تعدُّ القوة الاقتصادية والمالية من العناصر الأساسية والمهمة في الاستيطان وذلك من أجل تحمّل نفقات إقامة المستوطنات على الأرض، وتغطية تكاليف نقل المستوطنين وإقامة المشاريع، إضافة إلى دعم القوة العسكرية ودفع رواتب الجند وتجهيزاتهم العسكرية. وقد عمل الصليبيون منذ إطلاق حملتهم الأولى على تأمين الدعم المادي اللازم للاستيلاء على بيت المقدس وإقامة المستوطنات وتأمين أسباب استمرارها. فقاموا بفرض الضرائب وجمع التبرعات من كل دول أوروبا آنذاك لتقديم الدعم المالي اللازم لمستوطناتهم الصليبية في بيت المقدس. وقد ذكرت المصادر العربية الكثير عن الدعم المالي الذي قدمته دول أوروبا لهذا المشروع الاستيطاني.[17] فمن أجل إنقاذ مملكة بيت المقدس الصليبية وتأمين رواتب الجند والمرتزقة قدمت ملكة صقلية المساعدات المادية اللازمة وأنقذتها من الإفلاس وذلك في سنة 508هـ.[18] كما أن الملك هنري الثاني (Henry II) ملك إنكلترا ولويس السابع (Louise VII) ملك فرنسا فرضا ضريبة عامة على رعاياهم لهذا الغرض. وتذكر بعض الدراسات أنها بلغت ثلاثون ألف جنيه تقريباً.[19] وعندما زاد الضغط الحربي على مملكة بيت المقدس من قبل صلاح الدين زاد معه الدعم المالي وقام على إثرها الملكان الإنكليزي الفرنسي بفرض ضريبة عُرِفت باسم "عشر صلاح الدين" سنة 584هـ. أما في المملكة الصليبية ذاتها فقد تم كان هناك ضريبتين للتصدي المقاومة الإسلامية الأولى سنة 562ه،[20] والثانية سنة 587هـ.[21] وقد كان لفرنسا وإنكلترا الدور الأكبر في دعم الجانب الاقتصادي في عملية الاستيطان الصليبي لبيت المقدس.

ثانيا: الإجراءات التي اتخذها الصليبيون لاستيطان بيت المقدس

لا يختلف المؤرخون المسلمون والغربيون حول همجية الحملات الصليبية وكيف أنها ارتكبت مذابح مروعة بحق المسلمين وغيرهم من سكان بيت المقدس والبلدات المجاورة لها. فقد حاصروا المدينة المقدسة شهراً ونصف ثم اقتحموها في الثالث والعشرين من شهر شعبان عام 492هـ، مقترفين جريمة دموية بحق سكان المدينة ومن جاء للدفاع عنها من المناطق المجاورة.[22] حيث "داسوا بالخيول جثث المسلمين المكدسة في المسجد الأقصى حيث كانت الدماء تصل (حتى لجام الخيل)"،[23] وهذا ما قاله المؤرخ الصليبي المعاصر للأحداث ريموند دجيل (Raymound d'Aguils).[24] ومثل ذلك ما رواه ابن الأثير حين قال: "وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين".[25] لقد مارس الصليبيون كل الأساليب الاستيطانية لتفريغ الأرض المقدسة من أهلها عن طريق المذابح والمجازر التي ارتكبوها، فأفرغوا المدن والبلدات وخوّفوا بذلك ما جاورها من البلدات فتركها أهلها ونزحوا عنها خوفاً من بطش وإجرام الصليبين. ومن لم يقتلوه تم طردهم من بلادهم، وقاموا بإنشاء العديد من المستوطنات الصليبية والقلاع والحصون، وأسكنوا فيها جماعات المهاجرين من الغرب الأوروبي. إذاً فالقوة العسكرية والبطش كانت العنصر الأهم في إفراغ المدن والبلدات من أهلها ثم تمليكها للغزاة. يقول المؤرخ فوشيه الشارتري:

> وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا [الفرنجة] بيوت السكان، واستولوا على كلّ ما وجدوه بها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من يسبق إلى الدخول، فقيراً كان أم غنياً، يستولي على البيت ولا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أنْ يحتل المترل، أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه، كما لو كان ملكية خاصة له، وهكذا اتفقوا جميعاً على هذا النمط من حقوق الملكية، وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أغنياء.[26]

ومع ذلك فإن عملية الاستيطان الصليبي في القدس اعترضتها منذ البداية مشكلة نقص العنصر البشري الصليبي. فاهتم الملك بلدوين الأول بإيجاد حل لهذه المشكلة، حتى وجد ضالته في المسيحيين الشرقيين الذين يعيشون فيما وراء نهر الأردن. واستطاع بين عامي 1115-1116م أن ينقلهم إلى القدس، وقام باستقبالهم مع أطفالهم وزوجاتهم، ومنحهم أجزاءً من المدينة، ووفر لهم المساكن، في الحي اليهودي الذي كان يقطنه اليهود قبل المجزرة التي ارتكبها فيه الصليبيون.[27]

ونخلص مما سبق أن الصليبين عمدوا إلى تهجير أصحاب الأرض ومنح تلك الأرض لمن قَدِمَ من أوروبا أو مِن مَن والاهم من مسيحيي الشرق، إضافة إلى تأمين الموارد المالية اللازمة لبعث الحياة في تلك المستوطنات الغريبة عن محيطها الإسلامي والعربي.

ثالثا: المستوطنات الصليبية حول بيت المقدس

لا بد لنا بداية من توضيح المقصود بكلمة (مستوطنة) والتي تعني "أرضٌ يترل فيها أجنبيّ ويتخذها موطنًا له غصبًا عن أهلها ومالكيها الأصليّين".[28] وقد تكلم عدد من الباحثين حول المستوطنات الصليبية في فلسطين وأعدادها وأسباب إقامتها، ومنهم بنفينستي الذي أورد قائمة بالمستوطنات البشرية التي أقامها الفرنجة بعد الاحتلال الفرنجي الصليبي لفلسطين ذاكرًا مساحتها وأعداد السكان فيها؛ حيث ذكر أن مجموعها قد بلغ حوالي ثمانين مستوطنة،[29] بينما ذكر براور أن عددها قد وصل إلى حوالي مائة مستوطنة، وشملت هذه المستوطنات الصليبية مدناً وقرىً وقلاعاً وحصوناً صغيرة،[30] فقد كان الصليبيون يحرصون على إقامة المستوطنات في المناطق التي كانت تشكل كثافة سكانية عالية مثل منطقة قيسارية التي احتوت على ما يقرب من سبع وسبعين قرية، كما امتد الاستيطان الفرنجي في منطقة جبال القدس الممتدة من بيت لحم إلى القدس ورام الله.[31] وسنأتي على ذكر أهم المستوطنات التي أقامها الصليبيون في فلسطين إبان الحملات الصليبية ولن نذكر القدس التي تعتبر أول مستوطنة استولى عليها الغزاة الصليبيون لأنها الهدف الأول لغزوهم واستيطانهم:

1- مستوطنة البيرة[32]

لم يكن اختيار الصليبيين لأماكن إقامة المستوطنات عبثياً وإنما كان يعتمد على أسباب ودوافع مهمة، "فاختيار قرية البيرة التي تقع على مقربة من مدينة القدس لإقامة مستوطنة صليبية على أراضيها جاء من أجل أن تشكل نقطة جذب للمهاجرين الجدد، والادعاء بصحة نواياهم في حماية مقدساتهم الدينية بعد تحريرها من أيدي المسلمين للتغطية على أهدافهم في السيطرة على الأرض من أصحابها الشرعيين".[33] وقد أطلق الصليبيون عليها اسم (Magna Mahumeria)، بمعنى منطقة التعبد الكبرى أو المستوطنة الدينية الكبرى.[34] ولم تكن قرية البيرة خالية من سكانها الأصليين، فعمل الجنود الصليبيون على تهجير من بقي منهم بتوجيه من رجال الدين الصليبيين. ثم عمدوا إلى توطين مجموعة من المهاجرين الأوربيين فيها مع إقطاعهم مساحات من الأراضي ليقوموا بزراعتها والاستفادة من عائداتها مقابل دفع ضريبة العُشُر لرجال الدين الصليبيين.[35] ولجعلها خط الدفاع الأول ضد أي هجوم يستهدف بيت المقدس قام الصليبيون بتحصينه فجعلوها محاطة بالأسوار والأبراج لتكون بذلك قلعة حصينة ضدّ أي هجوم قد تتعرض له؛ وذلك أن المسلمين واصلوا جهادهم ومقاومتهم لاستعادة أراضيهم وطرد المحتلين منها.

ونجد أن مستوطنة البيرة كانت تقوم بمهام مختلفة منها العسكرية والاقتصادية والدينية. وكان هؤلاء المستوطنون يعملون في جميع المهن وخاصة الحدادة، والنجارة، وصناعة الأحذية، والبناء، وكان منهم

الصاغة، والمزارعون الذين كانوا يشرفون على الحدائق والبساتين. وقد قام رجال الدين اللاتين بتنظيم المجتمع الزراعي في البيرة وغيرها من المستوطنات التي أقاموها في فلسطين.

2- مستوطنة القبيبة[36]

أقام الصليبيون مستوطنة القبيبة وأطلقوا عليها اسم المحمرة الصغرى (Prava Mahumeria)، أشارت بعض الوثائق المؤرخة عام 1169م إلى أن المحمرة الكبرى والصغرى وبيت سوريك،[37] هي قرى قد تم تشييدها بوساطة كنيسة القيامة، وسكنت من قبل اللاتين، وكانت تخضع لسلطان الكنيسة القضائي، وكانت مستوطنة القبيبة تمتاز بموقع استراتيجي هام؛ لوقوعها على الطريق الرئيس المؤدي من السهل الساحلي إلى القدس، وهي واقعة على طريق الحجاج. ويبدو أن عدد سكان القبيبة كان أقل من عدد سكان قرية البيرة بسبب تلاصق المباني في قرية القبيبة. وفي أبراجها كان يتمركز عدد من الجنود والفرسان لمراقبة طريق الحجاج بشكل دقيق، وبخاصة أن هذا الطريق كان يتعرض للكثير من العمليات العسكرية و الكمائن من قبل المقاومة الإسلامية ضد أفواج المهاجرين والحجاج القادمين من أوروبا.[38]

3- مستوطنة راماتيس

ولاستكمال خطوط الدفاع حول مدينة القدس أقام الصليبيون مستوطنة راماتيس (Ramathes) على أرض الرام (Aram).[39] وكان معظم سكان قرية راماتيس من المسيحيين السريان، وقد أمكن إحصاء أسماء ثمانية وعشرون شخصا كانوا يقيمون في الموقع قبل إنشاء القرية الجديدة. ولعل ذلك يشير بأن الاستيطان الصليبي لم يقتصر على المناطق غير المأهولة[40] بالسكان إذ أسست هذه المستوطنة في منطقة مأهولة بالسكان.[41]

> ولعل بعض المستوطنين اللاتين الذين استقروا في راماتيس امتلكوا بعض كروم العنب في القرية؛ لأن اقتصاد مستوطنة راماتيس يعتمد على زراعة الحبوب والخضروات، وأشجار الزيتون التي كانت دائما من أهم عناصر الزراعة الفلسطينية. و كانت مستوطنة الرام مطابقة في بنائها لمستوطنة البيرة.[42]

وأقام الصليبيون إلى جانب المستوطنات المجاورة للمدينة المقدسة مستوطنات أخرى في المناطق الشمالية من فلسطين فتشير المصادر إلى قرية الزيب،[43] الواقعة على بعد (14كم) شمال مدينة عكا، والتي كانت في البداية حصنًا صغيراً.[44] أطلق عليه الجغرافيون العرب اسم الزاب وذكره ابن جبير بقوله: "واجتزنا في طريقنا على حصن كبير يعرف بالزاب، وهي مطلة على قرى وعمائر متصلة".[45] وذكرها ياقوت الحموي بقوله: "قرية كبيرة على ساحل بحر الروم عند عكا".[46] في حين أطلق عليها الفرنج اسم أمبرت (Casal Imbert) وذلك نسبة إلى الفارس الفرنجي الذي احتلها 493هـ/1104م.[47] وكما قدمنا سابقاً

فإن عدد المستوطنات الصليبية زاد عن الثمانين حتى أوصله بعضهم إلى مئة. كل ذلك في سبيل تثبيت وجود المحتل الصليبي في هذه الأرض علّه يحقق شيئاً من الأسباب المادية المعينة على استمرار وجوده فيها.

رابعاً: أثر الاستيطان على المعالم الإسلامية في بيت المقدس

لم تسجل لنا كتب التاريخ حضوراً للعلماء في فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، سوى ما ذُكر عن بعض العلماء أنهم حضروا بيت المقدس زائرين.[48] لذا لم يقتصر الأثر السيء للاحتلال الصليبي على سكان بيت المقدس فحسب بل تعداه إلى معالم الحياة العلمية والثقافية؛ فقتلوا الكثير من العلماء وهجروا من لم يقتل منهم، وبذلك تم القضاء على الحركة العلمية والفكرية. كما هاجم الصليبيون أماكن العبادة الإسلامية ودمّروا المساجد وحوّلوا بعضها إلى كنائس، فما أن سقط المسجد الأقصى بين أيديهم عام 493هـ حتى عملوا على تحويل أجزاء كبيرة منه إلى استخداماتهم، فجعلوا قبة الصخرة كنيسة سمّوها (معبد السيد) وأقاموا فيها أماكن لممارسة شعائرهم ومذابح لهم، ورسموا صورا ونقوشاً لاتينية على جدرانه وكذلك وضعوا فيه التماثيل.[49] أما الجامع الأقصى فجعلوه مسكناً لملكهم ولفرسان الداوية.[50] واستمروا بسياستهم تلك في معظم البلدات التي استوطنوها، فحولوا مسجد عكا إلى كنيسة،[51] ومسجد عسقلان أيضا والذي اطلقوا عليه اسم (كنيسة القديس بولس)، وحولوا المسجد الإبراهيمي في الخليل إلى كنيسة أيضاً.[52] وكان الهدف من هذه السياسة هو القضاء على الوجود والهوية الإسلامية ومعالمها وكل مظاهر الحياة العلمية فيها.[53] وإمعاناً في تطبيق سياسة الاضطهاد الثقافي والحضاري ضد المسلمين؛ غيّر الصليبيون أسماء أبواب بيت المقدس، وشوارعها، وأسماء بعض الأماكن فيها، وأطلقوا عليها أسماء صليبية جديد.[54] نتيجة لما سبق لم يهتم الصليبيون بإنشاء المدارس بل عملوا على تعطيل الحياة العلمية ومرافقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. بل إنهم أهملوا شأن العلم والتعليم الخاص بهم فلم يقيموا المدارس بل بقي التعليم مقتصراً على التعاليم الدينية التي ينالونها من الكنيسة؛ مما جعله عقيما عن إنتاج النخب العلمية من المفكرين والمجددين، مما أوقعهم في التخلف الفكري الذي حرم المجتمع من الاستفادة من تلاقي حضارات مختلفة.

خامساً: المقاومة ونهاية الاستيطان الصليبي لبيت المقدس

نجح الصليبيون في احتلال أرض بيت المقدس وفلسطين وإقامة المستوطنات فيها، وذلك نتيجة لجملة من الأسباب؛ كانقسام الصف الإسلامي وفقد القيادة الموحدة وضعف الأمة بشكل عام وتناحرها مذهبياً. وعلى الرغم من كل ذلك فإن حركات المقاومة الشعبية لم تتوقف مذ دخل أول جندي صليبي إلى أرض بيت المقدس. وذكرت لنا المصادر التاريخية صوراً من هذه المقاومة والجهاد، فإن أعداداً كبيرة من

المجاهدين دافعوا عن بيت المقدس من أهله ومن سكان الريف المجاور له الذين لجؤوا إليه لصد هجوم الصليبيين.[55] وقد قاد حركة الجهاد هذه قاضي المدينة أبو القاسم مكي بن عبد السلام،[56] الذي عمل على تحريض الناس على الجهاد والمقاومة إلى أن أُسرَ وقتل.[57] وعملت المقاومة على إفساد وطمر ما يقع حول مدينة القدس "من الينابيع والعيون" للتضييق على الصليبين، ونشر المرض في معسكراتهم، بالإضافة إلى تدمير صهاريج وأحواض مياه الأمطار.[58]

دفعت هذه المقاومة الشعبية والإسلامية بأساليبها المتنوعة بأعداد كبيرة من الصليبيين إلى مغادرة الأرض المقدسة إلى الغرب الأوروبي؛ إذ لم تترك لهم المقاومة الشعبية مجالا للشعور بالهدوء أو الإحساس بالأمن والاستقرار فيها. وهذا ما عبر عنه ويليام الصوري واصفاً الوضع الأمني المتدهور في القدس بقوله:

> فنادرا ما كان هنالك مكان يستطيع المرء أن يرتاح فيه بأمان حتى داخل أسوار المدينة، وفي المنازل ذاتها... كما أن حالة الأسوار المخربة تركت المدينة معرضة للعدو.. فقد اقتحموا المدن.. وبطشوا بالكثيرين في عقر منازلهم.[59]

هذا الرعب الذي وقع في نفوسهم دفع بعضهم للعودة إلى بلدانهم التي قدموا منه. كما أن المقاومة لم تقتصر على هذا الجانب، فإن مقاومة اقتصادية كان يقوم بها سكان بعض القرى والبلدات رفضاً للمستوطن والمحتل الصليبي وذلك من خلال الامتناع عن زراعة الأراضي والبساتين حتى لا يستفيد منها الصليبيون. بل إن كثيرا من الفلاحين الذين قاموا بزراعة أراضيهم قاموا بتدمير وتخريب أراضيهم المزروعة، ولا شك أن أسلوب المقاومة هذا يشبه ما يعرف اليوم "بالعصيان المدني" الذي كانت له نتائجه السلبية على الاقتصاد الصليبي.[60]

وبعد عدة عقود من الاحتلال وفي عام 583هـ انتصر السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين، وفتح بجيوشه المدن المقدسية ثم وصل إلى مدينة بيت المقدس في منتصف شهر رجب وما أن بدأ بمهاجمة الصليبيين فيها حتى استسلموا وطلبوا الأمان. ودخل المسلمون بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق للسابع والعشرين من شهر رجب سنة 583هـ. أما سكان المستوطنات الأخرى من الصليبيين فقد هربوا بعد سماعهم بانتصارات صلاح الدين، وكان مصير مستوطناتهم الزوال، فقد ذكر ياقوت الحموي –الذي زار بيت المقدس بعد طرد الصليبيين منها– أن السلطان صلاح الدين قام بتدمير مستوطنة البيرة بعد أن استعادها من الفرنجة.[61] ومن الملاحظ أن المستوطنين لم يظهروا أي مقاومة للحفاظ على المستوطنات التي أقامها على أرض فلسطين لعدم ارتباطهم بها، بل فروا إلى البلاد التي أتوا منها، فصاحب الباطل لا يملك دافعاً للبذل في سبيل باطله على عكس أهل الحق الذين يبذلون الغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن حقهم.

المبحث الثاني: تهجير أهالي بيت المقدس (المسلمين والنصارى واليهود) أسبابها ونتائجها

أولاً: سياسة التهجير وطرد السكان الأصليين

كان للاستيطان الصليبي أثره على البنية السكانية لفلسطين وبيت المقدس، مما جعل هذه "البنية الفسيفسائية" والتي تشمل المسلمين واليهود والنصارى على اختلاف مذاهبهم في حالة نزوح وعدم استقرار؛ فالمذابح والمجازر التي ارتكبها الصليبيون ضدهم وعمليات الطرد والتهجير المرافقة لسياسة الاستيطان وإعادة التوطين، أدت إلى تغيرات في هذه البنية السكانية. و بقيت آثار المجازر والمذابح الصليبية المروعة محفورة في ذاكرة الجماهير وأرغمتهم على الهروب. كل ذلك يشير بكل وضوح إلى سياسة التهجير القسري الذي اعتمده الصليبيون؛ فقد رافقت الحملة الصليبية الأولى عمليات تهجير وهجرة لعدد كبير من السكان؛ كما حدث تفريغ سكاني لبعض المناطق والمدن، وهرب سكان المناطق التي تعرضت للعدوان إلى مناطق أخرى أكثر أمنًا. فتؤكد معظم المصادر التاريخية المتوفرة بشكل واضح أن موجات كبيرة من اللاجئين طردوا وهجروا من مدنهم وقراهم أثناء العمليات العسكرية للقوات الصليبية لاحتلال الأرض المقدسة حتى كادت فلسطين تخلو من سكانها الأصليين الذين تفرقوا في بلاد المسلمين. ويصور لنا المؤرخ فوشيه الشارتري ذلك بقوله: "كان المواطنون الشرقيون قد ولوا الأدبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا، و لم يبق إلا أولئك الذين فاقوا الهباب سوادًا فتركناهم، وعاملناهم باحتقار".[62] ويقصد بهم أولئك البؤساء والضعفاء الذين كانت أوضاعهم صعبة و لم يستطيعوا الخروج. وسنأتي على ذكر عناصر البنية السكانية (المسلمين والنصارى واليهود) وموقف الصليبيين منها:

1- المسلمون

تعرض المسلمون في فلسطين للطرد والتهجير من قراهم وبلداتهم كما ذكرت بعض وثائق كنيسة القيامة؛ وذلك ضمن سياسة الاستيطان وتفريغ القرى والأراضي ومنحها للكنائس والأديرة. ومن ذلك تهجير السكان المسلمين لقرية كفر مالك، الذين هجروا إلى قرية بيت فوريك الواقعة في حدود إقطاعية نابلس، وذلك من أجل منح قرية كفر مالك إلى كنيسة القيامة.[63] وعندما فرض الملك بلدوين حصارا بريًا وبحريًا على مدينة أرسوف، وبالرغم من حصانة المدينة فان أهلها اضطروا إلى إجراء مفاوضات استسلام استمرت ليومين مع الملك بلدوين الأول، وانتهت تلك المفاوضات بخروج أهلها المسلمين وتهجيرهم إلى مدينة عسقلان وعلى ذلك دخل الصليبيون مدينة أرسوف في 28 جمادى الأول 494هـ.[64]

ومن الجدير بالذكر أن أساليب التهجير أو طرد سكان فلسطين من بلداتهم وقراهم كانت متنوعة؛ فعندما اقتربت القوات الصليبية الغازية من فلسطين، وسمع أهلها بالجرائم والمجازر التي ارتكبتها قواتهم ضد المسلمين في أنطاكية ومعرة النعمان وجد سكان بعض المدن غير المحصنة أنفسهم مجبرين على

الخروج منها. و لم يقتصر نزوح السكان عن المدن غير المحصنة فحسب بل إن أهل الريف الفلسطيني نزحوا عن قراهم واتجهوا إلى الإقامة بالمدن المحاطة بالأسوار والقلاع لعلها تحميهم. فيروي الصوري أن أهالي القرى والريف المحيط بالقدس قد جلوا عن قراهم إلى المدينة المقدسة هربا من وجه القوات الغازية وبحثا عن السلامة لأنفسهم.[65]

إذا من الواضح أن عملية الطرد والتهجير الجماعي كانت سياسة ممنهجة لدى المحتل الصليبي لإفراغ الأرض من أهلها وسكانها الأصليين، ونرى ذلك جلياً في المدن والقرى التي استسلمت للصليبين مقابل الحفاظ على حياتهم والسماح لهم بمغادرتها والنزوح عنها، مثل مدينة أرسوف وعكا وعسقلان والتي خرج منها من استطاع الخروج براً وبحراً إلى ناحية مصر وغيرها.[66]

2- النصارى

كان المسيحيون الشرقيون بكافة طوائفهم يقيمون في مناطق عديدة من فلسطين، وقد مثل هؤلاء الطبقة التي راهن المشروع الصليبي على إنقاذها من الاضطهاد المزعوم الذي روجت له الدعاية الصليبية الكاذبة؛ فقد جاء في خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمونت "عليكم أن تسارعوا لمد يد العون لإخوانكم القاطنين في الشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم".[67] غير أن الصليبيين بعد استيلائهم على بلاد الشام أظهروا احتقارا للمسيحيين الشرقيين في الغالب، واعتبروهم هراطقة ولا يستحقون الاحترام. فقاموا بإقصاء كبار رجال الدين الأرثوذكس عن مناصبهم، وعينوا رجال الدين اللاتين في تلك المناصب في كل من بيت المقدس وعكا والخليل والناصرة وقيسارية. كما قام قادة وأمراء الصليبيين بمصادرة ممتلكات الجماعات المسيحية في فلسطين وغيرها من البلدان. ولجأ المسيحيون الشرقيون إلى تقديم الرشوة من أجل إعادة بعض الأملاك المصادرة لأصحابها.[68] وبعد استقرار الصليبيين في فلسطين، وحاجتهم للعنصر البشري المنتج لم يلبثوا أن أظهروا المودة للمسيحيين الشرقيين فقاموا بإعادة رجال الدين الأرثوذكس إلى كنيسة القيامة، وسمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية.

ويكشف لنا فوشيه الشارتري عن دور السريان كيف أنهم زودوا الجيش الصليبي بالمعلومات اللازمة عن المسلمين، وذلك في سياق حديثه عن حملة الملك بلدوين الأول على جنوب فلسطين 494هـ/1100م، مما سهل المهمة على الجيش الصليبي الذي تتبع المسلمين في مخابئهم، وقتلوا منهم قرابة مائة رجل. وبناء على هذه المعلومات تقرر مواصلة الزحف نحو منطقة البحر الميت وما ورائه من بلاد العرب.[69] ومما سبق نرى تفاوتاً واضحا في موقف الصليبين من النصارى في بيت المقدس، فهم لا يرون فيهم نظراء لهم في الدين فلم يرفعوا من شأنهم إلى مرتبة المسيحين الأوربيين، ولكنهم استعانوا ببعضهم

ممن والاهم في حملاتهم ضد المسلمين، وكذلك استخدموهم عند حاجتهم للعنصر البشري في إقامة المستوطنات الصليبية.

3- اليهود

في أواخر القرن الخامس الهجري بدأت التجمعات اليهودية في بلاد الشام تقل وتنحصر في مراكز محددة، حيث يحددها أحد الباحثين بعشر تجمعات موزعة على المدن الساحلية الكبرى، وفي الرملة وطبرية والقدس. ويبدو أن ذلك راجع لأنباء المذابح والمجازر المرتكبة في الغرب ضد اليهود، وقرب وصول الصليبيين إلى بلاد الشام.[70] هذا بالإضافة إلى الخطابات والتحذيرات التي وصلتهم من إخوانهم سواء في الغرب الأوربي أو في المشرق الإسلامي تحذرهم من الصليبيين. ففي أعقاب وصول الصليبيين إلى الساحل اللبناني عام 493هـ، وصل خطاب من مدينة رفح، بصحبة أحد سكانها من اليهود يطلب من إخوانه اليهود في مدينة القدس أن يهربوا إلى مدينة عسقلان خوفًا من الخطر الصليبي.[71] وهو ما يفسر لنا أسباب الهجرة الجماعية التي قامت بها الجاليات اليهودية من بعض المدن الهامة مثل رام الله ويافا هربًا من الخطر الصليبي القادم من الغرب الأوروبي.[72] وتوجه كثير منهم إلى حلب[73] ودمشق حيث وجدت حارة باسمهم في مدينة دمشق ذكرها ابن عساكر ضمن عرضه لخطط المدينة،[74] حتى قدر عدد اليهود من جميع الطوائف فيها بحوالي عشرين ألف يهودي.[75] وذكر التطيلي عددهم أثناء زيارته لدمشق بحوالي (3600) يهودي.[76] كما هاجر عدد من اليهود إلى مصر حيث ذكر التطيلي وجود كنيسان لليهود في القاهرة إحداهما "ليهود فلسطين ويسمى كنيس الشاميين"، هكذا نرى أن كثيرًا من اليهود قد هجروا فلسطين إلى مصر، والمدن الشامية الداخلية قبيل أو بعد الاحتلال الصليبي للأرض المقدسة.

ثانيا: دورة التاريخ بين الحركة الصليبية والصهيونية

إن قضية التطابق بين قضيتين تاريخيتين تختلفان من حيث الظروف الدولية ليس وارداً، لكن التشابه أمر ممكن بل واقع أيضاً. ومع وجود من يرى أنه لا وجه، أو لا حاجة -بتعبير أدق- للمقارنة بينهما لاختلاف الظروف التي أفرزت كلاً منهما، إلا أن هناك من يرى بينهما تطابقاً أو تشابهاً كبيراً جداً. ويرى البعض[77] في الحركتين تشابهاً مثيراً للدهشة بل إن الفروق بينهما ليست شيئاً يذكر مقارنة بأوجه الشبه المثيرة. فيذكر أحد الباحثين:

> بعد يومين من نكسة يونيو 1967، وبالتحديد فى 7 يونيو أعلن دولة الكيان الصهيوني احتلالها مدينة القدس الشرقية كاملة، الأمر ليس فى الاحتلال فقط، الأغرب أنه جاء فى نفس دخول جيوش الحروب الصليبية لمدينة القدس قبل أكثر من 500 عام، فهل كان الدخول الصهيوني للمدينة حرب صليبية جديدة، وما أوجه التشابه بين الواقعتين؟ إن هناك عدة عوامل تشابه بين احتلال الصليبيين

والإسرائيلين لمدينة القدس، يتمثل فى الدور الغربى فى الغزوين، إذ أن فكرة الحروب الصليبية بدأت من أوروبا الشرقية عام 1095، من خلال مؤتمر كليومونت، وكذلك الغزو الصهيونى، بدأ الإعلان عن تنفيذ منذ المؤتمر الصهيونى الأول فى سويسرا عام 1897م.[78]

ويرى أوري أفنيري[79] بأنَّ الاستيطان الصهيوني لا يختلف عن الاستيطان الصليبي لفلسطين، ويذكر أحد الدارسين أن هذا المنحى بدأ عند أفنيري، عندما قرأ كتاب المؤرخ الإسكوتلندي ستيفن رنسيمان "تاريخ الحروب الصليبية"، ووجد أنّ الصليبين تحصّنوا في الأماكن ذاتها التي تحصّن فيها الإسرائيليون في مقابل قطاع غزة. وعقب ذلك، قرّر زيارة رنسيمان، وكان أول سؤال وجهه إلى رنسيمان:

عندما ألّفت كتابك، هل خطر في بالك أنّ هناك تشابهاً بين الصليبين في الماضي والصهاينة في أيامنا؟، فأجابه: لم يخطر في بالي فحسب، بل أيضاً أردت أن أضع للكتاب عنواناً فرعياً: "دليل للصهاينة حول ماذا عليهم ألا يفعلوا". لكن أصدقائي اليهود نصحوني بتجنّب هذا.[80]

كما أن رنسيمان يرى أن كل الأحداث منذ قيام الكيان الصهيوني تسير على خط واحد مع مثيلاتها في الحروب الصليبية، وكذلك قيام المملكة الصليبية في بيت المقدس، ومن ثم سقوطها. قد لا يشكل هذا الرأي مفاجأة للصهاينة، ومع ذلك فإن هذا الكتاب ممنوع لديهم. لأن المقارنة بين "الصليبيين" و"الصهاينة"، وبين "مملكة بيت المقدس" و"إسرائيل" يسبب لهم قلقاً وتوتراً. لكن الوقائع والأحداث هي التي فرضت هذه المقارنة:

أولاً: المكان الذي أتى منه الصليبيون والصهاينة واحد، فقد أتوا من الغرب الأوربي وبدعم منه.

ثانياً: واقع العرب والمسلمين المتردي والانقسامات في صف الأمة وما رافقه من حالة الضعف العام.

ثالثاً: عدَّ الصليبيون قواتهم "جيش الغرب"، وأنهم في الشرق امتداداً للغرب ورأس حربة للدفاع عنه. أما الصهاينة فهم كما قال ثيودور هرتزل مؤسسها في كتابه (دولة اليهود): علينا أن نقيم في فلسطين قاعدة أمامية للدفاع عن الثقافة الغربية في مواجهة ما سماه "الهمجية الإسلامية".

رابعاً: روّج الصليبيون لحملاتهم التوسعية والاستيطانية في الشرق على أنها استعادة وحماية للمقدسات المسيحية في بيت المقدس، ولذلك جعلوا من الصليب شعاراً لهم. وكذلك فعل الصهاينة عند احتلالهم لفلسطين بذريعة تحقيق الوعد الإلهي لهم بإقامة دولة يهودية "مملكة الله على الأرض"، وبناء هيكل "يظهر فيه المسيح المنتظر وينطلق منه لإنقاذ العالم مما يعانيه من شرور وكوارث" كما يزعمون.

خامساً: سياسة الاستيطان التي انتهجها الصليبيون والصهاينة للاستيلاء على بيت المقدس، وعملهم الدؤوب لتشجيع هجرة الأوروبيين أولاً على الهجرة والاستيطان في فلسطين. بينما تأخر تشجيعهم لهجرة الصهاينة واليهود الآخرين من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي السابق وغيرهما من الدول.

سادساً: الخريطة الجغرافية للسيطرة الصليبية والصهيونية، نجد أن الصليبيين قد امتلكوا بعد فترة قصيرة من بداية غزوهم "الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام"،[81] وتكاد خريطة "الكيان الصهيوني" كما حدّدها

قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة في 1947 تتشابه إلى حد كبير مع خريطة "مملكة بيت المقدس الصليبية" التي أنشئت في 1099م.[82]

سابعاً: لم يعش الاحتلالان الصليبي والصهيوني دون خوف أو قلق، لأن مقاومة الاحتلال لم تتوقف، واستمرت المعارك والحروب المتقطعة إلى أن حُسم الأمر على يد صلاح الدين الأيوبي، وهذا الحسم المنتظر لقضية الاستيطان الصهيوني بإذن الله.

مما سبق نرى أن أوجه التشابه بين سياسة الاستيطان بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية متماثلتان إلى درجة كبيرة جداً بل قد تصلان إلى درجة التطابق في كثير من التفاصيل. مما يحدوا بنا أن نمضي في استنباط العبر واستقراء مرحلة الحملات الصليبية للوقوف على الدروس المستفادة منها في مقاومة المحتل الصهيوني واستعادة الأرض.

الخاتمة

إن الادعاء بأن هذه المقالة يمكن لها أن تناقش قضية جوهرية في حياة الأمة الإسلامية أمر لا يدعيه عاقل، ولكنها مقاومة بالمستطاع من القوة، وتحريض للمؤمنين وشحذ لهممهم، ولا تخلو من تذكير لمن نسي أو كاد أن ينسى في خضم الفوضى العارمة التي تعيشها أمتنا الإسلامية. فقضية بيت المقدس كانت وستبقى القضية الأهم والأولى لدى شعوب المسلمين، وإن خانها بعض الحكام بدعاوى مختلفة وحجج واهية، فإن ذلك لا يغير من حقائق التاريخ شيئاً كما قال الشاعر الأعشى:

كَناطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيوُهِنَها   فَلَمْ يَضِرْها وأوْهى قَرْنَه الوعِلُ

إن التاريخَ الذي سجل في صفحاته البيضاء الناصعة انتصار الحق وأهله في بيت المقدس ضد الاستيطان الصليبي وأعلى ذكرهم، هو ذاته التاريخ الذي سوّد وجوه الخونة وأثبتهم وأسمائهم في صفحاته السوداء.

ومن خلال هذه الدراسة نخلص إلى جملة من النتائج ، أهمها:

1- إن القوة العسكرية للصليبيين هي التي ساعدهم في السيطرة على الأرض، وطرد السكان الأصليين منها، وتوطين المهاجرين الأوربيين وغيرهم في المستوطنات التي أقاموها في الأرض المقدسة.

2- أثبتت الدراسة أهمية كل عنصر من عناصر الاستيطان على حدة، وأن أي نقص أو خلل يعتري أيّاً من هذه العناصر سيفضي حتماً إلى سقوط الصرح الاستيطاني مهما بلغ في ظاهره من القوة.

3- أثبتت هذه الدراسة أن قضية الأرض والاستيلاء عليها هي الأساس في عملية الاستيطان مهما حاول المحتل أن يسترها تحت غطاء من دعاوى دينية أو قومية.

4- إن عمليات الاستيطان متلازمة مع عمليات الطرد والتهجير لأصحاب الأرض، تمهيداً لاستقدام المستوطنين الغرباء، وهي ذات السياسة التي اتبعها المحتل الصليبي و والمحتل الصهيوني في بيت المقدس وأكنافه.

5- أثبتت هذه الدراسة أنّ وحدة الأمة والعمل الجادّ من قِبَل أصحاب الأرض مع استمرار المقاومة من أهمّ الأسباب التي أنهت عملية الاستيطان الصليبي في الأرض المقدسة.

إن تشابه المقدمات في الوقائع التاريخية لا بد لها أن تصل إلى نتائج متماثلة أيضاً، لذا يجب علينا أن نعيد قراءة الأحداث المعاصرة في ضوء حقائق التاريخ، لنصل إلى حلول ناجعة لمشكلاتنا المعاصرة التي تقف عائقاً أمام نهوض أمتنا وتحرير بيت المقدس وفلسطين وغيرها من بلاد المسلمين.

الهوامش

[1] غريغوري السابع: راهب وقديس و تولى كرسي البابوية من سنة 1073-1085م، وهو صاحب الإصلاح الغريغوري وبدأ في عهده الصراع بين البابوية والإمبراطورية من أجل استقلالية الكنيسة، وقد استطاعت الكنيسة في عهده من الاستقلال دينياً وسياسياً. انظر: ل. م. هارتمان، ج. باراكلاف، **الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى**، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف بمصر، 1970، ص 49-50.

[2] توماس ماستناك، **السلام الصليبي**، ترجمة بشير السباعي، ط 1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص171.

[3] البابا أوربانوس الثاني (1042 – 29 يوليو 1099)، ولد باسم أوتو اللاجيري، كان البابا من عام 1088 إلى 29 يوليو 1099. وهو معروف بإطلاقه الحملة الصليبية الأولى، انظر: حسام حلمي يوسف الأغا، **الأوضاع الاجتماعية في فلسطين زمن الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، الجامعة الإسلامية في غزة، 2007، ص35.

[4] رواية الراهب روبير عن مجمع كليرمونت، **الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق**، قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2001م، ص79.

[5] المصدر السابق، ص79.

[6] المصدر السابق، ص82.

[7] الأغا، **الأوضاع الاجتماعية** ، 2007، ص88-89.

[8] كارلس ديفز، **أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة عبد الحميد حمدي محمود، ط 1، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1958، ص78.

[9] شاكر مصطفى، **من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس**، مجلة شؤون عربية، ع 52، 1987، ص17.

[10] محمد مؤنس عوض، **عالم الحروب الصليبية، بحوث ودراسات**، ط 1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2005م، ص201.

[11] الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص 48-49.

[12] جان ريتشار، **تكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية وبنيتها**، ضمن كتاب: الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994، ص158.

[13] ويليام الصوري، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2003، ج1، ص472.

[14] مصطفى الحياري، **مدينة القدس زمن الفاطميين والفرنجة**، مكتبة عمان، 1994 م، ص 179.

[15] أسماء هذه القرى وهي: عين قينيا، وكفر عقب، وبوبيل، بيت لقيا، والرام، والبيرة، وكفر الذيل(الديك)، وعين سينيا، وقلنديه، وبيت سوريك، وهيلمل، وعطارة بيريت، بيتونيا، بيت فوتير، وعرنوطية، وصبحه (خربة صبحه)، وهوبين (دير الهوا)، باريميتا (خربة الميتا)، وبيت علام (أم الميس)، زنيو (زانوح)، وقرية عورينت. ينظر: الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص106.

[16] الصوري، **تاريخ الحروب الصليبية**، ج 1، ص 801، الجزوري، علية عبد السميع، **إمارة الرها الصليبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م ص 334.

[17] أبو يعلى حمزة ابن القلانسى، **ذيل تاريخ دمشق**، ط1، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، ص 297. عماد الدين الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 2003م، ص 208. عز الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، **تح**قيق :أبو الفداء عبد الله القاضي، ط3، دار العلمية، بيروت، 1998م، ج 10 ، ص 120 و 184.

[18] بالار، ميشيل بالار، **الحملات الصليبية والشرق اللاتيني في القرن 11–14م**، ترجمة بشير السباعي، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2003م، ص 117– 118.

[19] حسين عطية، **دراسات في تاريخ الحروب الصليبية**، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص303 – 307، و روجر أف يندوفر، **ورود التاريخ**، ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، ج34، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000م، ص228.

[20] الصوري، **تاريخ**، ج2، ص895. بهاء الدين ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسبة اليوسفية**، ط1، دار المنار،القاهرة، 2000م، ص 25– 27. ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص 12– 15.

[21] الصوري، **تاريخ**، ج 2، ص 1054.

[22] سهيل زكار، **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**، ط2، دمشق، دار الفكر المعاصر، 1975م، ص 244.

[23] Raymound d'Aguiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, Paris 1866, p.300.

[24] ريموند دجيل Raymound d'Aguiles: من المؤرخين الذين عاصروا الحملة الصليبية الأولى. ينظر: جوزيف نسيم يوسف: **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى**، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1967، ص4–5.

[25] ابن الأثير: **الكامل** ، جـــ10، ص 283، أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، **المختصر في أخبار البشر**، جـــ2، تحقيق د. محمد زينهم عزب ويحيى سيد حسين، ط1، القاهرة "دار المعارف" 1998م، ص299.

[26] الشارتري، فوشيه الشارتري، **تاريخ الحملة إلى القدس**، ترجمة زياد العسلي،ط1، دار الشروق، عمان،1990م، ص 76 . الصوري، تاريخ، ج 1، ص 437.

[27] ينظر: امطير، محمد سامي أحمد، **الحياة الاقتصادية في بيت المقدس وجوارها في فترة الحروب الصليبية**، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية بنابلس (2010)، ص54– 55.

[28] عمر، أحمد مختار عبد الحميد، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، 2008، ط1، برقم 5634، ج3، ص2462.

[29] Benvenisti, op. cit., p.223. نقلاً عن: الأغا، الأوضاع الاجتماعية، ص122.

[30] براور، يوشع براور، **الاستيطان الصليبي في فلسطين –مملكة بيت المقدس**، ترجمة عبد الحافظ البنا، ط1، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2001م ص 499.

[31] الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص122.

[32] البيرة: بلدة قديمة يعود تاريخها إلى الكنعانيين الذين أطلقوا عليها اسم (بيئروت) أي الآبار، وسميت في العصر الروماني بيرتا(Berea) (أي القلعة أو الحصن)، وأطلق عليها الفرنجة اسم (ماه وميريا)، وهي تقع على بعد 16 كم شمال القدس. ينظر: مصطفى مراد الدباغ: **بلادنا فلسطين**، جـــ8، ق2، ط1، بيروت 1974م ص 256–257. ينظر: إبراهيم نيروز، **رام الله – جغرافيا – تاريخ – حضارة**، ط1، دار الشروق، رام الله، 2004م، ص 81.

[33] سلامة، جلال حسني، **الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة 1099–1187م/492–583هـ**، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة، 1425هـ/2004م، ص164.

[34] الصوري، **تاريخ** ،ج 2، ص 625.

[35] ينظر: الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص 122.

[36] القبيبة (Prava Mahumeria) Al-Qbaibah: تصغير قبة، أسست على أراضي بيت سوريك، وتقع على بعد سبعة أميال شمال غرب القدس. وذكرت القرية في العديد من الوثائق التي ترجع إلى العصر الصليبي، يوجد بها في الوقت الحالي كنيسة مهدمة للصليبيين.

[37] بيت سوريك (Beth Surik): وردت في الوثائق الصليبية بأشكال مختلفة منها: بيت سوري Behtsuri وبيت سوريت Beth surit وبيت سوريه Beth surieh . والقرية تبعد عشرة كيلو مترات شمال غرب بيت المقدس. انظر: الدباغ، مراد مصطفى، **موسوعة بلادنا فلسطين**، ط1، دار الهدى، كفر قرع، 2000م، ج 8، ق 2، ص 106–107.

[38] ينظر: سلامة، **الاستيطان**، ص 172.

[39] الرام (Aram): تقع على بعد خمسة أميال شمال القدس, وفي منتصف المسافة بين قلندية وجبع، وترتفع نحو سبعمائة وثمانين متراً عن سطح البحر. الدباغ، **بلادنا**، ج 8 ق 2، ص 70–71.

40 البيشاوي، سعيد عبد الله جبريل البيشاوي، **الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية "1099–1291"**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م، ص 190، 291. سلامة، **الاستيطان**، ص173.

41 المصدر السابق ص173.

42 امطير، **الحياة الاقتصادية** ، ص62.

43 قرية الزيب: وهي قرية كنعا نية عرفت باسم أكزيب، عرفها الفرنج باسم أمبرت نسبة إلى الفارس الصليبي الذي استولى عليها سنة 497 هـ/ 1104 م. تقع على مسافة 14 كم شمال عكا، الحموي، شهاب الدين ابن أبي عبد الله، **معجم البلدان**، دار الفكر، بيروت، ج 3، ص 162. بورشارد، الحاج بورشارد من دير جبل صهيون، **وصف الأرضي المقدسة**، ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1995م، ص40.

44 الدباغ، **بلادنا**، ق 2،ج 7، ص 344.

45 محمد بن أحمد الكتاني ابن جبير، **الرحلة المسماة تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار**، ط 1،دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص 236.

46 الحموي، **معجم**، ج 3، ص 16.

47 بورشارد، **وصف**، ص 40 . البيشاوي، **الممتلكات**، ص 19.

48 ينظر: عصام مصطفى عقلة وفوزي خالد الطواهية، **زيارة العلماء للقدس فيِّظل الاحتلال الفرنجي الصليبي**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد11، العدد3، 2017م، ص22.

49 الأصفهاني، **الفتح**، ص 92 . أبو شامه، شهاب الدين أبو محمد، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، قدم له وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، ط 1،دار الكتب العلمية، بيروت، 2000 م. ج3 ، ص 256.

50 الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي، **رحلة بنيامين التطيلي**، ترجمة: عزرا حدّاد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002 م، ص 249.

51 ابن الأثير، **الكامل**، ج 10 ، ص 149.

52 علي السيد، **الخليل والحرم الإبراهيمي في عصر الحروب الصليبية" 492–583هـ/1099–1187م"**، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص 329.

53 المدني، رشاد عمر، **الحياة العلمية في فلسطين في مرحلة الصراع الصليبي الإسلامي "491–690هـ، 1098–1291**" رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ/ 2005م، ص 79.

54 محمد الحافظ النقر، **التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الإفرنجي**، جامعة اليرموك، ط1، اربد، الأردن، 1999م، ص 8–10.

55 ريموند أجيل، **تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس**، ترجمة حسين محمد عطية، ط 1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990 م، ص244 . الصوري، **تاريخ**، ج 1، ص 416.

56 هو مكي بن عبد السلام بن الحسين بن القاسم الأنصاري، مؤرخ ومن الحفاظ والرحالة وكان مجتهدا في طلب العلم، وسمع على كثير من العلماء في القدس ودمشق وبغداد ومكة؛ نبغ في علوم الفقه والدين، ونسبته الرميلي إلى قرية أسمها الرميله من أرض فلسطين؛ قتل شهيدا في 12 شعبان 492 هـ/ 1099 م. السمعاني، أبي سعيد عبد الكريم، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1998 م. ج 3، ص 93. احمد بن على الحريري، **الأعلام والتبيين بخروج الفرنجة الملاعين على ديار المسلمين**، تحقيق سهيل زكار، ط 1، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1981 م، ص 66.

57 مجير الدين الحنبلي العليمي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، 2ج، تحقيق عدنان يونس عبد الحميد، ط 1، مكتبة دنديس، الخليل، 1999، ج 1، ص 436.

58 ينظر: الصوري، **تاريخ**، ج 1، ص415–419.

59 المصدر السابق، ج1، ص472.

60 ينظر: سلامة، **الاستيطان**، ص205.

61 ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ1، ص526.

62 الشارتري، **تاريخ الحملة**، ص 109.

63 ينظر: الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص22.

64 ينظر: المرجع السابق، ص 46.

65 الصوري، **تاريخ**، ح 1، ص 416.

66 ينظر: ابن القلانسي، **ذيل**، ص 321 .الصوري، **تاريخ**، ج 2، ص 822.

67 الشارتري، **تاريخ الحملة**، ص36.

68 ينظر: الأغا، **الأوضاع الاجتماعية**، ص165.

69 الشارتري، **تاريخ الحملة**، ص 108.

70 بالار، **الحملات**، ص 165. براور، **الاستيطان**، ص 283 .عوض، **عالم**، ص 198- 199.

71 براور، **الاستيطان**، ص 283.

72 المصدر السابق، ص283.

73 التطيلي، **الرحلة**، ص 280-281. حيث ذكر في رحلته أن عدد اليهود فيها بلغ ألف وخمسمائة يهودي على رأسهم الرّابيّان موسى الفلسطيني وإسرائيل وشيث.

74 ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، **تهذيب تاريخ دمشق**، دار احياء التراث العربي، دمشق، ج 2، ص 287.

75 عوض، محمد مؤنس، **الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية**، ط 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م، ص 276.

76 التطيلي، **الرحلة**، ص 273.

77 كمال محمد محمد الأسطل، **مستقبل اسرائيل بين الاستئصال والتذويب: دراسة حول المشابهة التاريخية بين الغزوة الصليبية والغزوة الصهيونية**، دار الموقف العربي، القاهرة، مصر، 1980م، ص6-7.

78 عبد الرحمن، محمد، دراسة تكشف أوجه التشابه بين احتلال الصليبيين والإسرائيليين للقدس، اليوم السابع ، الأحد، 07 يونيو 2020.

79 أوري أفنيري: كاتب وصحفي صهيوني، ولد في ألمانيا عام 1923م، صاحب كتاب (إسرائيل بلا صهيونية) باللغة الانكليزية وكتابه هذا ممنوع في الكيان الصهيوني. ينظر: محمد الصياد، **أوري أفنيري**. «**الإسرائيلي» المتحول**، جريدة الخليج، 20 أبريل 2018.

80 أنطوان شلحت، **الصهاينة والفرنجة**، جريدة العربي الجديد، يومية سياسية شاملة تصدر من لندن، العدد 1808، تاريخ 14 اغسطس 2019، ص14.

81 السيد على السيد، **العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين**. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1996 .ص155.

82 الأسطل، **مستقبل إسرائيل**، ص14.